

## الروس وأصولهم على ضوء عمل المسعودي : "مروج الذهب ومعدن الجواهر"

عمر شعار \*

من هم الروس؟ هل ينتمون عرقيا إلى القبائل النورماندية الجرمانية؟ وما هي علاقتهم بالقبائل السلافية (الصقالبة) أو القبائل السكيفية ذات الأصول الإيرانية؟ حول هذه الأسئلة وغيرها من الاحتمالات تدور حوارات حامية الوطيس في أوساط المؤرخين الروس، والأجانب المتخصصين بتاريخ شعوب أوروبا الشرقية منذ ثلاثة قرون، وحتى وقتنا الراهن. وبلا شك تتضمن هذه الحوارات إسقاطات فكرية ودينية وسياسية، وجيوبوليتيكية تبرز بشكل حاد على السطح السياسي الروسي في المراحل التاريخية الانعطافية في سياق الإجابة على السؤال الكبير: هل الدولة الروسية تنتمي حضاريا إلى الحضارة الأوروبية الغربية أو إلى الحضارة الآسيوية الشرقية؟. وكدلالة على أهمية وحساسية موضوع أصول الروس في وقتنا الراهن يكفي الإشارة إلى أن صحيفة "أزفيستيا" الروسية المعروفة، أفردت له صفحتها الرئيسية الأولى بتاريخ (17/1/2004)، أجرت عليه حوارا مطولا مع الأكاديمي الكسندر ساخاروف، مدير معهد تاريخ روسيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وفي صيف عام 2004م، قام الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، بزيارة إلى المناطق الواقعة في شمال غرب مدينة نوفغراد الروسية، والتي تجري فيها تنقيبات أثرية واسعة النطاق بهدف الإجابة على هذا السؤال الكبير (أزفيستيا 17/7/2004م).

وفي العهود القيصرية تبنت الجهات الرسمية الروسية النظرية "النورماندية"، معتمدة في ذلك على مخطوطة "رواية الأ-عوام البائدة"، التي كتبها القس نيبستور في نهاية القرن الثاني عشر وأكد فيها على أن الروس هم مجموعة من قبائل "فارياغ" النورماندية الجرمانية الشمالية، الذين سيطروا بقيادة زعيمهم ريبوريك في بداية القرن العاشر الميلادي على القبائل السلافية "الصقالبة" المتناحرة المستوطنة في حوض نهر الدنيبر، وأن "الروس الفاريغيين"، لعبوا دورا أساسيا في تشكيل إمارة "كييف الروسية" القديمة، وشكلوا فيها لاحقا النخبة الحاكمة العيا ممثلة في سلالة ريبوريك التي حكمت الدولة الروسية حتى نهاية القرن الخامس عشر عندما توفي الأمير ديمتري ابن ايفان الرابع، الذي يطلق عليه اسم "ايفان الرهيب"، آخر قيصر من هذه السلالة، ودخلت الدولة الروسية على أثر ذلك في مرحلة الفتنة "سموتا" وفي عام 1613م، انتقل زمام السلطة في الدولة الروسية إلى عائلة رومانوف القيصرية(1).

في منتصف القرن الثامن عشر وعلى أثر تشكل الإمبراطورية الروسية معبرا بذلك عن بداية بزوغ الشعور القومي السلافي، وطموح الدولة الروسية لتزعم الشعوب السلافية الأرثوذكسية في مواجهة الدول الأوروبية الغربية، والإمبراطورية العثمانية، وقد ازدهرت

النظرية السلافية القومية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وأصبحت سائدة في أوساط المثقفين والسياسيين الروس، وأيدتها بقوة الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

في العهد السوفياتي تبنى الشيوعيون النظرية السكيفية، ومفادها أن الروس والسلاف ينتمون إلى القبائل السكيفية والسارماتية ذات الأصول الإيرانية التي كانت تقطن في جنوب أوكرانيا على السواحل المطلّة على البحر الأسود في الألف الأولى قبل الميلاد، والتي ذكرها هيرودوت في كتاباته التاريخية، وبذلك أراد الشيوعيون السوفييت أن يربطوا الروس بالشعوب المحلية القديمة ورفضوا بشدة مقولة الروس الفارياغيين الوافدين إلى منطقة حوض نهر الدنيبر، ويعتبر الأكاديمي السوفييتي اليكسي ريباكوف أبرز ممثلي النظرية السكيفية (2). في مرحلة البروسترويك، وعلى أثر إشاعة الحريات الديمقراطية، ورفع القيود عن حرية الفكر ظهرت آلاف الدراسات المكرسة لهذا الموضوع، وكلها تتمحور حول وجهتي النظر الأساسيتين: النورماندية التي يتبناها ممثلو التيار الليبرالي التغريبي والسكيفية التي يدافع عنها ممثلو التيارات القومية والشيوعية.

بعد هذا العرض الموجز للخليفة التاريخية والسياسية لهذه الإشكالية يبرز السؤال التالي: ما هي علاقة المسعودي بهذا الموضوع الشائك؟ الإجابة على هذا السؤال تنحصر في أن أغلب المؤرخين الروس يستشهدون بأعمال المؤرخين والرحالة العرب المسلمين وبالأخص بعمل المسعودي "مروج الذهب وجوهر المعادن" الذي زار المنطقة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. وقبل التوقف عندما كتبه المسعودي حول الروس وأصلهم وعلاقتهم مع السلاف (الصقالبة) لابد من التعرض لخصوصية جغرافية المنطقة التي بدونها لا يمكن فهم وتفسير نصوص المسعودي حول هذا الموضوع.

تتميز المنطقة التي شهدت أحداث ولادة إمارة "كريف الروسية القديمة" في القرن العاشر الميلادي بوضعية جغرافية فريدة من نوعها، فهي شبه مغطاة بالغابات ومملوءة بالبحيرات والمستنقعات والأنهار الصغيرة والمتوسطة وفيها تجري ثلاثة أنهار كبرى: الفولغا (اتيل) والدنيبر ودفينا الغربي المتصلة مع بعضها البعض من خلال المنبع من ناحية وتصب في بحار مختلفة، فهذه الأنهار الثلاثة تتبع من منطقة واحدة، وهي منطقة الفالداي الواقعة في مقاطعة نوفغراد الروسية، التي تقع شمال غرب موسكو على بعد أربع مائة كيلومتر، ففي هذه المنطقة يقع منبع نهر الفولغا الذي ينحدر نحو الشرق، ومن ثم ينعطف نحو الجنوب ليصب في بحر قزوين، ومنها ينبع نهر الدنيبر الذي ينحدر نحو الجنوب ويصب في البحر الأسود، وفيها أيضاً يقع منبع نهر دفينا الغربي الذي يتجه نحو الغرب ويصب في بحر البلطيق. وبذلك نلاحظ أن البحار الثلاثة: البلطيق، والأسود، وقزوين مرتبطة بين بعضها بعضاً منذ أقدم العصور من خلال الملاحة النهرية في أحواض الأنهار الثلاثة، وهذا الواقع الجغرافي يجب أخذه بعين الاعتبار عند دراسة مسألة أصول الروس وعلاقتهم مع شعوب وقبائل المنطقة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

تتمثل الأهمية التاريخية الاستثنائية لما كتبه المؤرخ والجغرافي العربي حول شعوب أوروبا الشرقية في حقيقة تاريخية مفادها أن المصادر التاريخية المكتوبة المتعلقة بشعوب

أوروبا الشرقية نادرة للغاية, وتنقسم إلى مجموعتين:

**الأولى:** ما ورد في أعمال المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب المسلمين.

**الثانية:** الكتابات والوثائق البيزنطية وبالأخص وثائق الكنيسة الإغريقية.

وتتحصر أسباب ندرة المصادر التاريخية المكتوبة المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية في الألف الميلادية الأولى في الحقيقتين التاريخيتين التاليتين:

**الأولى:** أن غالبية شعوب أوروبا الشرقية في تلك المرحلة، باستثناء شعوب اللان, ومملكة السرير, والأرمن, والخزر, والبُلغار لم تمتلك في ذلك الحين كتابة خاصة بها, ومن هنا لم يكن لديها مصادر تاريخية مكتوبة, ويتوجب أن ننوه هنا إلى أن إمارة كييف الروسية اعتمدت الأبجدية الكيريلية بعد أن اعتنقت المسيحية رسمياً في نهاية الألف الأولى الميلادية (988م), وقبل هذا التاريخ لا تتوفر معلومات حول طبيعة الأبجدية التي كان الروس يكتبون بها. ويحتمل أن بعض الشعوب كان لديها أبجدية ومصادر تاريخية مكتوبة خاصة بها, لكنها أُلقت وتعرضت للدمار, وهذا الأمر وارد إذا أخذنا بعين الاعتبار الحقيقة الثانية, وهي أنه في الألف الميلادية الأولى شهدت منطقة شرق أوروبا حروباً تدميرية متوالية بنتيجة ما يطلق عليه المؤرخون عصر "هجرات الشعوب الكبرى" التي جرت في تلك المرحلة, والمقصود بذلك زحف قبائل الجرمان من شمال أوروبا إلى جنوبها وشرقها, وكذلك زحف قبائل القوط إلى شرق أوروبا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين, ومن ثم هجرة قبائل الهون في القرنين الرابع والخامس الميلاديين من أقاصي آسيا إلى شرق أوروبا, وتمركزها في هذه المنطقة, ثم هجرات القبائل التركية المتوالية على مدى النصف الثاني من الألف الأولى الميلادية من أواسط آسيا (القبائل التركية الغربية وقبائل البجناك والقفجاق وغيرها), والتي تمركزت أيضاً في شرق أوروبا التي كانت في تلك المرحلة بمثابة منطقة عبور واستيطان من الشرق إلى الغرب وبالعكس. وقد ترافقت عمليات هجرات الشعوب المتوالية, بحروب تميزت بطابع الإبادة ودمج الشعوب, والتدمير الشامل لكافة الكيانات السياسية القديمة ونشوء كيانات سياسية جديدة اتسمت بتدمير الأوابد الحضارية القديمة ومن بينها الوثائق والكتابات التاريخية. وبنتيجة عمليات الهجرات كان تركيب سكان شرق أوروبا في نهاية الألف الميلادية الأولى متنوعاً للغاية وبالغ التعقيد.

لقد احتك العرب المسلمون بشعوب أوروبا الشرقية قبل عملية تشكل دولة كييف الروسية القديمة بفترة زمنية طويلة نسبياً, فقد تعرفوا إلى أراضي أوروبا وآسيا في القرنين السابع والثامن الميلاديين خلال المعارك العسكرية التي خاضوها ضد الدولتين الفارسية والبيزنطية, وأيضاً ضد الخاقانية الخزرية. ففي خلال فترة زمنية قصيرة توسعت حدود الخلافة العربية الإسلامية, وشملت مساحات من قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا امتدت من أسبانيا في الغرب إلى أواسط آسيا في الشرق ومن بينها شعوب ما وراء القوقاز (أرمينيا وجورجيا) حيث انضوى تحت لواء الخلافة العربية الإسلامية أعداد كبيرة من الشعوب تنتمي إلى مختلف الأقاليم والأجناس, وهيمنت الدولة العربية الإسلامية على معظم الطرق وخطوط المواصلات التجارية التاريخية ومنها طريق الحرير العظيم,

ولذلك برزت أمام الدولة العربية الإسلامية مسألة الاهتمام بالعلوم الجغرافية والتاريخية وتطويرها بالاعتماد على المراكز العلمية التي كانت موجودة في المدن التاريخية (الاسكندرية ودمشق وطبرستان وسمرقند وغيرها). ومع تطور كافة العلوم في ظل الخلافة العربية الإسلامية ازدهرت العلوم الجغرافية والتاريخية.

وفيما يتعلق بجغرافية أوروبا الشرقية وتاريخ شعوبها توجد في الأدبيات الجغرافية العربية الإسلامية عدة مدارس أهمها مدرستا العالمين الجغرافيين البلخي والجهاني. ففي أدبيات هاتين المدرستين نجد معلومات جغرافية وتاريخية فائقة الأهمية حول طريق الفولغا- البلطيق التجاري, وحول الأوضاع الاجتماعية للقبائل والشعوب القاطنة في هذه المنطقة, ومن بينها الروس والصقالبة (السلاف) ونجد وصفا لخصائص أوضاعهم الاقتصادية, وعاداتهم ومعتقداتهم الدينية.

وقد تميزت مدرسة البلخي في سلسلة أدبياتها "الممالك والمسالك" باهتمامها بالطرق وخطوط المواصلات التجارية البرية القديمة وبمحدودية معلوماتها الجغرافية حول البحار, حيث لم يعرف ممثلو مدرسة البلخي شيئاً حول وجود البحر الأسود وبحر أزوف, وعوضاً عن هذين البحرين يذكرون خليج القسطنطينية الذي كانوا يعتقدون أنه يمتد بشكل مباشر إلى الشمال حتى نهاية العالم.

وحتى بداية القرن العاشر الميلادي كانت المعلومات التاريخية والجغرافية المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية محدودة أيضاً في أدبيات مدرسة الجهاني, ولكن في النصف الأول من هذا القرن توسعت المعلومات المتعلقة بهذه المنطقة بفضل حدثين مهمين:

**الأول:** زيارة ابن فضلان إلى منطقة حوض الفولغا, والتي وصفها في رسالته.

**الثاني:** زيارة الجغرافي, والمؤرخ العربي المسعودي إلى منطقة القوقاز في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي.

وتكتسب المصادر التاريخية والجغرافية العربية أهمية علمية استثنائية وبشكل خاص عمل المسعودي "مروج الذهب ومعادن الجوهر", وأهميته لا تنحصر فقط في أن مؤلفه يعد من أبرز العلماء المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين, ويتمتع بسمعة علمية عالية المستوى, واحترام كبير في الأوساط العلمية العالية التي تطلق عليه لقب "هيرودوت العرب", وإنما تنحصر أهمية عمله كذلك في أنه لم يكتب في "مروج الذهب", حول شعوب أوروبا الشرقية فقط بالاعتماد على ما كتبه الآخرون من الجغرافيين والمؤرخين, بل استقى المسعودي معلوماته من خلال تجربته الخاصة بعد أن تواجد شخصياً في منطقة القوقاز, وتجول في أرجائها في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي.

توفي العلامة أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي, في مدينة الفسطاط بمصر في عام (346هـ الموافق 956م), أي قبيل انهيار خاقانية الخزر, وزوالها عن خارطة شرق أوروبا بعشر سنوات. وكان قد توجه إلى شرق أوروبا في عام (314هـ الموافق 932م) وأقام فيها عدة سنوات, ومن ثم عاد إلى مصر, وكتب فيها عمله, وبلا شك فقد اطلع المسعودي على أعمال من سبقه من الرحالة والجغرافيين العرب المسلمين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها قبله, ومن بينهم ابن فضلان, ولكن المسعودي على عكس ابن

فضلان كان رجل علم ذا ثقافة موسوعية ودقيقا في معلوماته التاريخية والجغرافية بعيدا عن الآراء الفنتازية اللامسؤولة التي تتميز بها رسالة ابن فضلان، الذي لم يكن سوى رسول الخليفة العباسي المقتدر بالله، إلى ملك البلغار، والصقالبة لتعريف شعبه بأصول الديانة الإسلامية (في عام 922م) (3). ورغم أهمية المعلومات التي تحتويها رسالة ابن فضلان إلا- أنه بالمقارنة مع المسعودي لم يكن رجل علم بالمعنى الواسع، ولذلك احتوت رسالته الكثير من الأوصاف والآراء الذاتية الخاطئة، والعبارات غير اللبقة التي لا يستخدمها رجالات العلم في وصفهم للشعوب الأخرى. أما المسعودي فقد كان أميناً ودقيقاً في تعابيره وآرائه، ويحتوي عمله على معلومات جغرافية وتاريخية، وأنتروبولوجية ثمينة للغاية بعيدة عن الذاتية والمبالغة والإثارة المصطنعة.

يتألف عمل المسعودي "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، من أربعة أجزاء (إصدار المكتبة العصرية. بيروت (1407هـ-1987م)). والفقرات المتعلقة بشعوب أوروبا الشرقية وردت في الجزأين الأول والثاني. ورغم أن المسعودي خصص لكل شعب من شعوب أوروبا الشرقية باباً خاصاً به- إلا أنه يذكر هذه الشعوب مرة أخرى في سياق الوصف الجغرافي للمنطقة وخلال حديثه عن علاقة هذا الشعب أو ذاك مع الشعوب الأخرى. مثلاً خصص المسعودي باباً خاصاً للروس وآخر للصقالبة في الجزء الأول، ولكنه يتحدث عنهما مرة أخرى في مواضع أخرى عندما يرد الحديث عن الخزر، والبلغار، والاراسية وغيرهم، ومرة ثالثة يذكرهما عندما يتحدث عن المعتقدات الدينية في الجزء الثاني.

في البداية يقدم المسعودي وصفاً جغرافياً للمنطقة، ويبدأ بوصف البحار المتاخمة لأوروبا الشرقية: نيطش (نيطس- البحر الأسود)، وبحر مانطش (مايطس- بحر أزوف)، ومضيق البوسفور، والدردينيل، ويسميه خليج القسطنطينية، حيث يقول: "وبحر نيطش متصل ببحر مانطش، ومنه خليج القسطنطينية الذي يصل إلى بحر الروم وما يتصل به، فبحر نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا أيضاً بحراً واحداً، وإن تضايق البحر في بعض المواضع بينهما..." (4)، وبذلك يؤكد المسعودي على أن بحر أزوف (مانطش)، متصل بالبحر الأسود (نيطش) المتصل بدوره عبر خليج القسطنطينية (مضيق البوسفور، والدردينيل)، ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسط).

ومن ثم يتوقف المسعودي عند قضية جغرافية بالغة الأهمية في عصره وهي: هل بحر الخزر (قزوين)، متصل ببحر مانطش (بحر أزوف)؟ وعند الإجابة على هذا السؤال يشعر القارئ أنه يقف أمام عالم جليل حريص على الأمانة العلمية، ودقيق إلى أبعد الحدود في استخلاص النتائج، حيث يقول المسعودي: "وقد غلط قوم زعموا أن البحر الخزري متصل ببحر مايطس، ولم أر فيمن دخل بلاد الخزر (من التجار، ومن ركب منهم في بحر مايطس ونيطس إلى بلاد الروس والبلغر، أحد يزعم أن بحر الخزر يتصل) ببحر من هذه البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها إلا- نهر الخزر، وكيف دخل الروس في المراكب إلى بحر الخزر وذلك بعد الثلاثمائة، ورأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يذكرون في كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نيطش يتصل ببحر الخزر، ولست أدري كيف ذلك، ومن أين قالوه؟ أمن طريق الحدس أم من طريق الاستدلال والقياس؟ (أو

توهموا أن الروس، ومن جاورهم على هذا البحر هو الخزر)، وقد ركبت فيه من أسكون، وهو ساحل جرجان، إلى بلاد طبرستان، وغيرها، ولم أترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم، ومن لا فهم عنده من أرباب المراكب إلا سألته عن ذلك، وكل يخبرني أن لا طريق له إليها إلا من بحر الخزر حيث دخلت إليه مراكب الروس" (5). نحن بالفعل أمام لوحة علمية ثمينة، ومثال نموذجي في أسلوب البحث العلمي نادرا أن نجد مثيله في وقتنا الراهن، فمن أجل أن يفند المسعودي آراء بعض الجغرافيين الذين سبقوه، وعاصروه القائلين بأن بحر قزوين (الخرز) متصل ببحر أزوف (مانطش)، يورد المسعودي في البداية آراء من سبقه من الجغرافيين، ويطباقها مع الواقع الطبيعي، ويقارنها مع آراء مختلف أنواع التجار، ويعتمد على حادثة هجوم الروس على سواحل بحر قزوين، الذين أتوا من خلال نهر الفولغا (أتيل أو الخزر)، وليس من خلال بحر مانطش (بحر أزوف)، وقد جرت هذه الحادثة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي (يقول المسعودي بعد الثلاثمائة هجري).

ومن ثم يقدم المسعودي، وصفا جغرافيا لجبال القوقاز التي كانت تسمى في ذلك الوقت (جبل القبخ) والمناطق المحيطة به، حيث يقول: "أما جبل القبخ فهو جبل عظيم، وصقعه صقع جليل، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم، وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها" (6). وهنا يتحدث المسعودي عن مدينة الباب والأبواب (مدينة دربند الراهنة) التي بناها كسرى الدولة الفارسية أنوشروان كثرع عسكري محصن وظيفته "دفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان (وأنواع الترك)، والسرير وغيرهم من الكفار" (7). ويورد هنا المسعودي أسماء الممالك التي كانت موجودة في تلك المنطقة: مملكة الإيران، ومملكة الموقانية، ومملكة اللكر، ومن ثم يتابع وصفه لجبل القبخ (القوقاز). فيقول: "وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج، وفيه أمم لا يعرف بعضهم بعضا لخشونة هذا الجبل وامتتاعه وذهابه في الجو، وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه، وعظم صخوره وأحجاره" (8). وبعد ذلك يتحدث المسعودي حول مملكتي طبرستان وجيدان، وحول الأخيرة يقول: "وييادي أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها جيدان، وهذه الأمة داخلية في جملة ملوك الخزر، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي...، فانتقل الملك عنها إلى مدينة أمل، وبينها وبين الأولى سبعة أيام، وأمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس، ولهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك، وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية، فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه..". (9).

في هذا المقطع يتحدث المسعودي عن مدينة سمندر عاصمة مملكة الخزر القديمة، والتي لم يعثر عليها حتى الآن، ومن ثم يتحدث المسعودي حول مدينة أمل العاصمة الجديدة

لمملكة الخزر التي أيضا لم يعثر عليها حتى الآن، ولكن المسعودي يؤكد على أن مدينة أمل تقع على ضفتي "نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك"، وهو نهر الفولغا ويقصد ببلاد الترك مملكة بلغار التي زارها ابن فضلان، وكانت تقع في الحوض الشرقي- الشمالي لنهر الفولغا، ويبدو أن المسعودي كان يتصور أن نهر الدون يتفرغ من نهر الفولغا عندما يقول: "ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس" (بحر أزوف)، ولهذا السبب كان المسعودي يتصور بأن بحر الخزر (قزوين) متصل بواسطة هذه الشعبة (نهر الدون) ببحر أزوف (مايطس).

وبعد أن يتحدث المسعودي بشكل مفصل عن الأوضاع السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية السائدة آنذاك في مملكة الخزر، والأعراق، والأجناس التي كانت تعيش في عاصمتها، ينتقل المسعودي للتحدث عن نهر برطاس المتشعب من نهر الفولغا وعن أمة برطاس التي كانت تعيش على حوض ذلك النهر، وهنا يقول: "وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس، وهو بحر (الروس) لا- يسلكه غيرهم، وهم على ساحل من سواحل، وهي أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة، وفيهم تجار يختلفون إلى ملك البرغز، وللروس في أرضهم معدن الفضة كثير" (10).

يبين لنا هذا المقطع أن المسعودي كان يتصور أن المنطقة التي ينبع منها نهر الخزر (وهو نهر الفولغا وكان يسمى أيضا اتيل) متصلة عبر ممر مائي (يسميه المسعودي خليج) بالبحر الأسود (نيطس). وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن نهر الدنيبر ينبع أيضا من المنطقة نفسها التي ينبع منها نهر الفولغا (وهي منطقة الفالداي التي أشرنا إليها) فإن ما يقصده بالخليج هو نهر الدنيبر تحديدا، ويطلق عليه المسعودي تسمية (بحر الروس لا يسلكه غيرهم)، ويبدو أن المسعودي لم يكن مطلعاً على مجرى نهر الدنيبر ولذلك كان يتصور أن البحر الأسود متصل بمنطقة "فالداي" أو بحيرة "لادوغا" الملاصقة من ناحية الشمال لمنطقة الفالداي عبر ممر مائي ضخم يسميه أحيانا بالخليج، وأحيانا بالبحر. وقد اختلط الأمر على بعض المؤرخين الروس عندما تصوروا أن ما يقصده المسعودي بقوله: "وهو بحر الروس لا يسلكه غيرهم" هو البحر الأسود، وهذا تصور خاطئ لأنهم اعتمدوا في قراءتهم على نصوص مروج الذهب وجوهر المعادن "للمسعودي المترجمة إلى اللغة الروسية من اللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية، ومن المفيد أن نذكر هنا أن المتعرب الروسي ميكولسكي نقل من اللغة العربية مباشرة إلى اللغة الروسية في عام (2002م) فقط الجزأين الثالث والرابع من عمل المسعودي المذكور المتعلقين بتاريخ الخلافة العربية الإسلامية، واستبعد الجزأين الأول والثاني المتعلقين بموضوعنا لأسباب نجهلها يحتمل لصعوبة الموضوع وتعقيداته. وأعتقد أن لا يمكن أن يطلق المسعودي على البحر الأسود تسمية "بحر الروس ولا يسلكه أحد غيرهم"؛ لأن المسعودي سمى بشكل واضح البحر الأسود ببحر "نيطس" أو (نيطس) وبحر أزوف "مانطيش" أو (مانطيس) وهي تسميات إغريقية اقتبسها المسعودي من أعمال الجغرافيين الإغريق القدماء، عدا ذلك فقد كان البحر الأسود في عصر المسعودي مسرحاً للأسطول البيزنطي ولسفن الشعوب الأخرى المطلة على البحر الأسود، ومن بينهم الروس الذين كانوا يصلون إليه عبر مجرى نهر

الدينير الذي يصب في هذا البحر ويشكل عند مصبه خليجا كبيرا نسبيا، وهذا يؤكد أن المسعودي يقصد بذلك مجرى نهر الدينير، وقول المسعودي حول هذا الممر النهري يتطابق مع التسمية التي كانت سائدة في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية التي أطلقتها الشعوب والقبائل المستوطنة في حوض نهر الدينير على ممره بـ(الطريق المؤدي من الفارياغ إلى الإغريق)، وهذه التسمية مثبتة في كافة مخطوطات إمارة كييف الروسية القديمة منذ نهاية القرن العاشر الميلادي، وعلى مدى القرنين الحادي عشر والثاني عشر (11)، وهي تعني أن هذا الممر المائي النهري كان يصل بين بلاد الفارياغ (النورماند) وبلاد الإغريق، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن إحدى وجهات النظر الأساسية حول أصول الروس تقول بأنهم الفارياغ (النورماند) فقد كانوا منذ أقدم العصور يردون إلى المنطقة من البلاد الاسكندنافية الشمالية على سفنهم عبر بحر البلطيق، ومن ثم على متنها يدخلون في مجرى نهر دفينا الغربي، ويصلون إلى منطقة الفالداي، وينتقلون إلى مجرى نهر الدينير، ويتوجهون نحو البحر الأسود حيث يبحرون إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، والتي كان الروس يسمونها (مدينة القيصر)، أو كانوا ينتقلون إلى مجرى نهر الفولغا (اتيل)، ويتوجهون نحو بحر قزوين حيث كان لهم تواجد شبه دائم في مدينة اتيل عاصمة الخاقانية الخزرية.

ولكن نرى عند المسعودي متابعة للموضوع أكثر دقة، حيث يقول: "والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال لهم اللوداعنة، وهم الأكثرون، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر..." (12). أعتقد أن هذا المقطع من عمل المسعودي مهم للغاية ويساعد على إلقاء الأضواء على أصول الروس، فتسمية "اللوداعنة" التي يوردها المسعودي يقصد بها مجموعة كبيرة من الناس، ومفردهم (لوداعني)، وهي على الأغلب، تسمية تطلق على الشخص الواحد بالانطلاق من أصله المكاني الجغرافي حسب المدينة أو المنطقة التي ينحدر منها وتعتبر مسقطا لرأسه، مثلا نطلق نحن السوريين على أهالي مدينة اللاذقية تسمية (اللوداظة)، والواحد منهم نسميه (اللاذقاني)، وإذا رجعنا إلى نص المسعودي حول نهر برطاس المتشعب من نهر الفولغا الذي يسميه أحيانا (نهر الخزر)، وأحيانا أخرى (اتيل) الذي يقول فيه: "وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس وهو بحر (الروس) لا يسلكه غيرهم..." وأعتقد أن موطن الروس الأصلي يقع في المنطقة التي تتبع منها الأنهار الثلاثة: الفولغا والدينير ودفينا الغربي، أو متاخمة لها، وإذا تمعنا في خارطة منطقة الفالداي، والمناطق المحيطة بها فإننا نشاهد في شمالها الغربي بحيرة لادوغا الكبيرة، وعلى سواحلها يوجد العديد من التلال الأثرية، وعدة مدن أهمها مدينة لادوغا، وعندما نجري مقارنة مع تسمية المسعودي للروس (اللوداعنة)، وفق مثال: لاذقية وأهلها اللوداظة والواحد منهم اللاذقاني - فإننا نلاحظ ما يلي: لادوغا وأهلها اللوداظة والواحد منهم اللادوغان.

أعتقد أنه لا توجد حاجة لملاحظة مدى التشابه الكبير بين تسمية المسعودي (اللوداعنة)، وتسمية (اللوداظة) المشتقة من لادوغا، ومن المثير للاهتمام أن علماء الآثار الروس يجرون حاليا تنقيبات أثرية واسعة النطاق في مدينة لادوغا القديمة على عدة كنوز من



النقود العربية الإسلامية تعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية، وعثروا على كميات كبيرة من اللقيات الأثرية المتنوعة للغاية، والتي تعود إلى حضارات شتى: البيزنطية والإسلامية والخزرية والأندلسية وغيرها، وهذا يؤكد كلام المسعودي حول ممارسة الروس للتجارة في البحر والأحواض النهرية، حيث يقول: " .. يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر..."، ونظرا لأهمية مدينة لادوغا في تاريخ الروس وأصولهم فقد أشرت في بداية هذه الدراسة إلى الزيارة التي قام بها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلى مدينة لادوغا، والمناطق المحيطة بها للاطلاع على نتائج التنقيبات الأثرية الجارية فيها على قدم وساق، التي تؤكد أيضا على أن هذه المنطقة كانت مستوطنة منذ أقدم العصور من قبل القبائل الفيلندية والأغورية، كما هاجرت القبائل السلافية (الصقالبة) إلى هذه المنطقة في بدايات القرن السادس الميلادي واستوطنت فيها، وقد شملت هجرة القبائل السلافية الوافدة من أوروبا الوسطى كافة مناطق شرق أوروبا، وكان لها حضورٌ متميزٌ في الخاقانية الخزرية، وتشير إلى ذلك المصادر العربية والبيزنطية. ورغم أن المسعودي وغيره من الجغرافيين العرب كانوا يذكرون الروس والصقالبة (السلاف) بشكل منفصل مما يؤكد أنهما كانا في تلك المرحلة شعبين مستقلين، إلا- أنه في الوقت نفسه كان يورد ذكرهما إلى جانب بعضهما بعضا، وسبب ذلك يعود إلى عملية اندماج الروس مع الصقالبة في منطقة لادوغا، والتي بدأت في بداية القرن التاسع الميلادي، واستمرت هذه العملية في القرن العاشر في كافة المدن الواقعة في حوض نهر الدنيبر أدت إلى تشكيل عدة كيانات سياسية روسية- سلافية في هذه المنطقة أبرزها: لادوغا، ونوفغراد، وكيف، والتي توحدت فيما بعد بزعامة مدينة كيف تحت قيادة سلالة ريوريك الروسية التي شكلت دولة قوية خاضت عدة حروب ناجحة ضد الإمبراطورية البيزنطية، وقامت في عهد الأمير سفيتوسلاف بتهديم الخاقانية الخزرية اليهودية في عام (967م)، ونتيجة ذلك فقد زالت نهائيا عن خارطة أوروبا الشرقية (13).

في المحصلة أستطيع القول بأن الروس هم مجموعة من القبائل استوطنت على مدى عدة قرون في منطقة لادوغا، واختلطت مع الشعوب المحلية: الصقالبة (السلاف)، والفيلنديين والأغوريين، وحتى بداية القرن العاشر الميلادي كانت لادوغا عاصمتهم ومسقط رأسهم، وكان الروس يشكلون النخبة الحاكمة في مدينة لادوغا، ولاحقا في نوفغراد وكيف وغيرها من المدن الواقعة في حوض نهر الدنيبر. وقد تميز الروس بإتقانهم ومهارتهم في التجارة النهرية والبحرية، واشتهروا بقدراتهم العسكرية الفائقة، وبسالتهم في المعارك وتشير إلى ذلك كافة المصادر التاريخية البيزنطية والعربية، التي تشير أيضا إلى أن الروس أسسوا على مدى عدة قرون عدة مستوطنات ومستعمرات كمحطات تجارية في أحواض الأنهار الثلاثة الكبرى: الدنيبر، ودفينا الغربي، والفولغا، وعلى سواحل وجزر البحر الأسود، وقد صادفهم المسعودي في المدن المطلة على بحر قزوين وفي مدينة اتيل عاصمة الخاقانية الخزرية وصادفهم ابن فضلان في إمارة بلغار في حوض نهر الفولغا.

ونعود للسؤال الكبير: هل تنتمي روسيا إلى الحضارة الأوروبية الغربية كما يدّعي ذلك ممثلو التيار التغريبي الليبرالي؟ أم أن روسيا تمثل حضارة أوروبية كما يؤكد ذلك

ممثلو التيار القومي الروسي؟.

أعتقد أنه لو اقتصر مساحة دولة الروس المندمجين مع السلاف (الصقالبة) على المناطق الغربية- الشمالية، والتي تضم مناطق لادوغا، ونوفغراد، والفالداي بالإضافة إلى حوضي نهري دفينا الغربي، والدينبير كما كان الأمر حتى منتصف القرن الثالث عشر، فإنها كانت ستنتهي حتماً إلى الحضارة الأوروبية بالمعنى الواسع (عرقياً وثقافياً ودينيًا)، ولكن بعد خضوع الإمارات الروسية للسيطرة التتارية منذ منتصف القرن الثالث عشر، ودخولهم في عداد دولة أوردا الذهبية على امتداد أكثر من قرنين، وتشكل دولة موسكو الروسية المركزية الموحدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وقيامها في منتصف القرن السادس عشر على يد إيفان الرهيب بضم الإمارات التتارية الواقعة في حوض الفولغا، ومناطق الأورال وسيبيريا إلى الدولة الروسية، واستمرار توسعها لاحقاً في الفضاء الآسيوي، حدثت تغييرات انثروبولوجية جوهرية في تركيب الشعب الروسي، فعلى امتداد حوالي الثمانية قرون جرت عملية اندماج عدة عروق وأجناس أوروبية وآسيوية (اندماج الروس مع السلاف، والفنلنديين والأ-غوريين، والبجناك والقفجاق، والتتار وشعوب سيبيريا وآسيا الوسطى)، وقد تبلورت هذه العملية بشكل خاص في مرحلة تشكل الإمبراطورية الروسية بدأ من عهد بطرس الأول في بداية القرن الثامن عشر وانتهاءً بالحقبة السوفييتية في نهاية القرن العشرين، والآن من يدق بيده على صدره مفتخراً بانتمائه إلى القومية الروسية تجري في عروقه دماء مختلفة ومتنوعة للغاية، ونستطيع أن نجزم بأنه تشكل في خلال الفترة المذكورة شعب روسي له حضارته الخاصة به ويستند على تاريخ مشترك ولغة وثقافة وعادات مشتركة وواقع جيوبوليتيكي أورواسيوي مشترك ومقدس، لا أحد يستطيع المساس به، حتى بوليس يلتسين، الذي كان يمثل ذروة الليبرالية المتهورة والمنبثحة أمام الغرب لم يستطع المساس بوحدة أراضي روسيا وذلك عندما رفض التنازل عن جزر الكوريل لليابان رغم العروض المغرية للغاية. هذه العملية التي تشكلت تاريخياً لا تنفي بالطبع وجود بعض النزعات الانفصالية المحدودة لدى بعض الأقليات القومية والتي برزت في مرحلة التسعينات من القرن العشرين، ولكنها تبقى ضمن إطار محدود للغاية ولا تؤثر على وحدة أراضي الدولة الروسية والشعب الروسي الذي يحمل الموروث التاريخي للإمبراطورية الروسية في العهدين القيصري، والسوفييتي، والموروث الثقافي للديانتين الأرثوذكسية، والإسلامية اللتين ترفضان الانصياع لإرادة الغرب الكاثوليكي، فروسيا -على حد تعبير الأكاديمي والسياسي المخضرم يفغيني بريماكوف- لا يمكن إلا- أن تكون قوية ودولة عظمى، وتدل معظم المؤشرات التاريخية على أن وضعية فلاديمير بوتين تشبه إلى حد كبير وضعية القيصر ألكسندر الثاني الذي تبوأ عرش الإمبراطورية الروسية في فترة هزيمة روسيا في حرب القرم في عام (1856م)، حيث قال لوزير خارجيته الأمير كورجاكوف جملته المشهورة: "أريد عشر سنوات هادئة بدون حروب"، كان ألكسندر الثاني في أمس الحاجة إليها لإجراء إصلاحات داخلية: اقتصادية، واجتماعية، ولتحديث الجيش الروسي. وبالفعل لقد عادت روسيا بعد عشر سنوات إلى الساحة الدولية قوة عسكرية وسياسية وبشرية عظمى.

وفي المحصلة أعتقد أن روسيا لا تنتمي إلى مجموعة الدول التي على مر التاريخ تميزت  
بكينونة خاصة بها تختلف عن حضارات الشعوب الأخرى، فروسيا بخصائصها التاريخية  
والجغرافية والأنثروبولوجية والثقافية هي روسيا لا تشبه إلا نفسها.

\*\*\*\*\*

### الحواشي

- (\* باحث من سورية.
- 1 - تاريخ روسيا: في ثلاثة أجزاء، إصدار معهد تاريخ روسيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية تحت إشراف الأكاديمي ساخروف، موسكو 2000م بالروسية ج1.
  - 2 - غالкина: ي. س الخاقانية الروسية، موسكو 2002م بالروسية.
  - 3 - المسعودي أبي الحسن: (مروج الذهب ومعادن الجوهر) أربعة أجزاء، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت 1987م.
  - 4 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الكتب العلمية بيروت 1990م، ج1 ص576-578.
  - 5 - المسعودي: مرجع ورد ذكره، ج1 ص124.
  - 6 - المرجع السابق: ج1 ص125.
  - 7 - المرجع السابق: ج1 ص176.
  - 8 - المرجع السابق: ج1 ص176.
  - 9 - المرجع السابق: ج1 ص178.
  - 10 - المرجع السابق: ج1 ص181.
  - 11 - تاريخ روسيا: مرجع ورد ذكره، ج1.
  - 12 - المسعودي: مرجع ورد ذكره، ج1 ص182.
  - 13 - غالкина: ي، س، مرجع ورد ذكره.